تاريخ الاستلام: 2023/09/17م تاريخ القبول: 2023/10/01م تاريخ النشر: 2023/12/15م

مجلة علمية محكمة نصف سنوية – تصدر عن أقسام الفلسفة بجامعة الزاوية
العدد الرابع عشر – السنة الخامسة – ديسمبر/ 2023م

أدب الرحلات وأثره في التقارب الثقافي

منى يوسف محمد حمودة
قسم اللغة العربية – التربية بالزاوية – جامعة الزاوية
الزاوية – ليبيا
EMAIL: munayosif222@gmail.com

ملخَّص البحث:

إنَ أدب الرحلات من الفنون النثرية القديمة، كان ولا يزال من وسائل التعرُّف إلى مواطن البشر واختلاف ثقافاتهم وأساليب حياتهم، والحضارات التي ينحدرون منها وينتمون إليها، وقد ظل أدب الرحلة على مرِّ العصور وفي جميع الثقافات جنسًا أدبيًا متميزًا، فهو بمثابة الجسر الذي تعبر الثقافات من خلاله إلى باقي المجتمعات، ويلعب أدب الرحلة دورًا كبيرًا في خلق الحوار بين الشعوب المختلفة، ويعمل على تضييق الفجوة بين مختلف الحضارات، وإيجاد لغة عالمية مشتركة، لغة التسامح والسلام، وتقريب وجهات النظر بين الأفراد والشعوب والدول؛ لأنَّ المعرفة والثقافة لا يمكن لهما أنْ معرفة النمو والازدهار، إلا في جو ملؤه السلام والمودة.

يتناول هذا البحث تأثير أدب الرحلة في التواصل والتقارب الثقافي بين الأمم والشعوب، وتتمثَّل أهمية الدراسة في كون الأدب بجميع فروعه يعد لغة عالمية لها دورها في حركة المجتمعات والتواصل بينها.

الكلمات المفتاحية: أدب، الرحلة، الثقافة، التقارب.

المحور الأول: أدب الرحلة المفهوم والماهية.

المحور الثاني: أغراض أدب الرحلة وتحوُّلاته وأهدافه.

المحور الثالث: أدب الرحلة ودوره في الحوار والتلاقح بين الثقافات.

المحور الرابع: مظاهر الرحلة الاجتماعية والدينية والثقافية كرابط للتواصل بين الحضارات.

Travel literature and its impact on cultural rapprochement

MunaYousef Mohamed

Department of Arabic language - Faculty of Education - University of Zawia

Azzawia -Libya
EMAIL: munayosif222@gmail.com

ABSTRACT

The Travel literature is an ancient miscellaneous art, it was andstill is one of the means of getting to know people's habitats, theirdifferent cultures, ways of life, and the civilizations to which theydescend and belong, Travel literature has remained throughoutthe ages and in all cultures a distinct literary genre, it is the bridgethrough which cultures cross to other societies, travel literatureplays a major role in creating dialogue between different peoples,and works to narrow the gap between different civilizations andfind a common global language that is the language of tolerance,peace and the convergence of views between individuals, peoplesand countries, because knowledge and culture can only knowgrowth and prosperity in an atmosphere full of peace and

affection.

This research deals with the impact of travel literature oncommunication and cultural rapprochement between nations andpeoples.

Keywords: literature, travel, culture, rapprochement.

The first Axis- Concept and essence.

Second Axis- The purposes, transformations, and objectives of thetravel literature.

The third Axis- Travel literature and its role in dialogue and cross-fertilization of cultures.

The fourth Axis- Aspects of the social, religious and cultural journey as alink for communication between civilizations.

مقدمة:

ساعدت الرحلات الإنسان على اكتشاف الأرض، وعلى معرفة مدى انتشاره في بقاعها، وأعانته على فهم أنَّ البشر قد سلكوا مناحي مختلفة، وتعدَّدت لغاتهم، وتنوَّعت طرائق حياتهم؛ لذلك فأدب الرحلة يعد السجل الذي يضم كمًا هائلًا من المعارف والمدوَنات التي تتصل بالجغرافية والتاريخ، وتقدم تقاريرًا وافيةً عن الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية لكل قطر.

تتناول الدراسة الدور الذي يؤديه أدب الرحلة في التواصل والتقارب بين الثقافات والشعوب، وتتمثَّل أهمية الدراسة في كون الأدب بجميع أنواعه يعد لغةً عالميةً لها دورها الفعَّال في حركة المجتمعات والتواصل والتلاقح بين ثقافاتها، وتهدف الدراسة إلى وضع تصور ورؤية لتوظيف أدب الرحلة في نشر ثقافتنا الإسلامية، ومواجهة خطر العولمة التي من شأنها القضاء على الخصوصية التي تميز الأمة العربية المسلمة، وجاء هذا البحث وفق المنهج الوصفي التاريخي، ولإنجازه كان الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع، ومن بينها كتاب تحفة النظار (في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة، و(الرحَّالة المسلمون في العصور الوسطى) لزكي محمد حسن، و(أدب الرحلة في التراث العربي) لفؤاد قنديل، وغير ذلك من الكتب المهمة في هذا المجال، وقد تم تقسيم البحث إلى أربعة محاور، تتبعها خاتمة تضمَّنت أهم النتائج.

المحور الأول: أدب الرحلة المفهوم والماهية.

يعُرَّفُ أدب الرحلات بأنَّه مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف ومشاهداته وأحاسيسه ومشاعره وأفكاره عن رحلاته، يصف فيها ما رآه في بلاد مختلفة من عادات الناس وتقاليدهم ومساكنهم، ومدارسهم وغير ذلك، والكتابات التي تتناول الرحلة تقدم في قالب أدبي مضمونه كل ما صادف المؤلف من أشخاص وأحداث[1]، وتُعد هذه الآثار الأدبية وثائق مهمة تصور الحياة في تلك الأزمان، وسجل حقيقي لمظاهر الحياة المختلفة، ومفاهيم أهلها على مر العصور، يقول زكي حسن: "الرحلات بمثابة مصادر شاملة سجلت فيها جوانب متعدِّدة فيما يخص الجوانب الحضارية على امتداد أزمنة متتالية، فالرحلة تتطلَّب اتساع المعارف وتنوُّعها؛ لأنَّها تستخدم الجغرافيا، وتستند إلى التاريخ عند التعرُّض لوصف المسالك والمدن والمعالم وبدايات الأمور، بل ورصد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة

لـديهم، وكـذلك الاقتصـادية، ويتبعهـا السياسـية بنسـب متفاوتـة، وعـرض ذلـك بـزي الأدب وطابعه"[2].

إنَّ الكتابـة فـي أدب الـرحلات يُعـد مـن أمتـع الفنـون الأدبيـة؛ لأنَّهـا أقـرب الفنـون للنفـوس لارتباطهـا بالاستكشـاف والوصـف، وهـي مـن أهـم الأنشـطة الثقافيـة التـي يمارسـها الرحالة لإبراز معالم الشعوب وثقافاتها وحضاراتها في مختلف أنحاء العالم، ولا يخفى على أحد أنَّ تاريخ الرحلات ليس حديثًا، بل هو قديم منذ أنْ خلق الله الإنسان، ثم أنزله إلى الأرض، وكان العرب من أوائل الذين مارسوا هذا النوع من الآداب، فقد كان لهم السبق في هذا المجال في العصور الوسطى، وقد ساعدهم على نيل هذه المكانة في تلك الفترة ما كانت تتمتع به اللغة العربية من قوة وعالمية أسهمت تلك القوة والعالمية إسهامًا عظيمًا في ارتحال وسفر مئات الآلاف من المسلمين إلى بقاع الأرض المختلفة كالصين والهند وأوروبا وغيرها بغرض المصالح الاقتصادية والدينية والاجتماعية، وخير ما نستدل به الرحالة ابن بطوطة الذي ارتبط أدب الرحلة به في جميع الثقافات، وأصبح رمزًا مهمًا في هذا النوع من الآداب، ذلك أنَّه عُرف بالوصف الدقيق لكل البلاد التي زارها وارتحل إليها، وهو الذي أمضى ثلاثين عامًا من عمره في الارتحال من مكان إلى آخر، وهو قائل الجملة الشهيرة: "بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا، وهو السياحة في الأرض، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلمه، وبقيت الأخرى، الرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه، وبلوغ المرام من دخول الجنة"[3]، وقد سجَّل رحلاته في كتابه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، وليس ابن بطوطة وحده من عرف واشتهر بهذا الفن، وإنَّما هناك الكثير من الرحَّالة العرب الذين ساحوا في الأرض، وسجَّلوا انطباعاتهم من الرحلة التي قاموا بها في مختلف البلدان والأمصار، ووصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم من عادات وتقاليد البلاد والبشر وأخلاقهم وسلوكهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية في كل بلد، نذكر منهم على سبيل المثال لا على الحصر: (ابن وهب القرشي) الذي ارتحل إلى الصين سنة (256هـ/870م)، فترك مدينة البصرة عندما خرَّبها الزنج، وخرج من سيراف على بعض المراكب الهندية، وساح طويلًا في ممالك الهند إلى أنْ وصل إلى الصين [4]، وابن جبير الذي كان من أعظم الحجاج شأنًا في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، فقد قام بثلاث رحلات إلى الشرق ودوَّن الرحلة الأولى باسم (تذكرة الأخبار عن اتفاقيات الأسفار)[5]، والإدريسي صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، وهو من أعلام الجغرافية المسلمين الذين كان للرحلات أعظم

شأن في آثارهم العلمية[6]، ولا ننسى أبا الريحان البيروني الذي امتاز بالإطلاع الواسع، والنقد العلمي الدقيق، والعمق في التفكير؛ فحاز بذلك قصب السبق في العديد من العلوم، منها الفلسفة والفلك والرياضيات والتاريخ وعلوم اللغة[7]، وقد وصلت شهرته في العصور الوسطى إلى أوروبا، وكتب عن تجاربه في الهند، ودوَّن ملاحظاته، وجال طويلًا في تلك البلاد، زخَبَرَ عادات أهلها ومظاهر حضارتهم، وغيَّر هؤلاء هناك الكثير من الأعلام الذين عرفوا بأدب الرحلات[8].

واتسمت الرحلات في عصر النهضة الحديثة بالتنوُّع والشمول والوصف الدقيق، والاتجاه نحو تحرِّي الحقيقة، ومن أشهر رحَّالة هذه الفترة فارس الشدياق، ومحمد عمر التونسي، وأمين الريحاني، وكل هؤلاء اشتهروا بأسلوبهم المتحرِّك، وطرافة الحديث وطلاوة السرد[9].

ومن الملاحظات على رحَّالة العرب أنَّ معظمهم من رجال الدين والعلم، وكان منهم هواة طوَّافون يدفعهم حب المغامرة إلى الكشف عمَّا يخفى من مجاهيل الأرض والناس، كما اهتم بعضهم بقضايا التوثيق التاريخي، وبعضهم بالجغرافية وبتوثيق علم الإنسان، وبنقل عادات السكان وأحوالهم النفسية وحياتهم الاجتماعية، ومنهم من كان غرضه التمازج بين الحضارات، ونقلها للأجيال اللاحقة بالوصف والكتابة، وليس أدب الرحلات أدباً شعبيًا كما يرى بعض الباحثين[10]، بل يزيد على الأدب الشعبي بما يضمه من معانٍ وأفكارٍ، ولأنَّ غايته النقل والترشيد الثقافي.

ويأتي أدب الرحلة على نوعين:

1- الرحلات الحقيقية التي حدثت على أرض الواقع، قام بها الرحَّالة حقيقة لغرض من الأغراض، وهي ذات قيمة عظيمة لما تسجله من حقائق في الجوانب التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والجغرافية، أشهرها الرحلات التي غرضها الحج، ومن أمثال الرحلات الواقعية، الرحلة التي قام بها لسان الدين الخطيب مع سلطان غرناطة الحجَّاج بن يوسف الأول في رحلته إلى مقاطعة غرناطة الشرقية عام (748هـ)[11]، والغرض من هذه الرحلة كان تفقّد أحوال الرعية، وقد سمَّى هذه الرحلة بـ(خِطَرةِ الطيف في رحلة الشتاء والصيف).

2- الرحلات الخيالية أو الأسطورية التي تصور المغامرات الخارقة بقصد تسلية القارئ وإثارة خياله، مثل رحلات السندباد وألف ليلة وليلة، ورحلات المتصوِّفة، ورسالة الغفران وغير ذلك من الرحلات القائمة على الخيال والخرافة.

وخلاصة القول، فأنَّه ممَّا لاشك فيه أنَّ الرحَّالة المسلمين قد أسهموا إسهامًا عظيمًا في تطور العلم والمعرفة، وفي التعريف بالشرق وإفريقيا، وقد شهد أحد المستشرقين أنَّ جغرافيّ العرب ملئوا الفراغ وسدّوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليوناني، وعهد ماركو بولو العالم الإيطالي، وأنَّ أخبار رحَّالة العرب وقصصهم أكثر تنوعًا، وأشد حيويةً وقوةً ممَّا نجده مسطورًا في كتب علماء اليونان وجداولهم، وأنَّ علمهم الذي ضمّنوه كتبهم يمتاز بأنَّه أعظم اختيارًا ونفعًا، وأكثر في التفاصيل ممَّا ورد في كتابات الرحالة ماركو بولو[12].

المحور الثاني: أغراض أدب الرحلة وتحوُّلاته وأهدافه.

يميل الإنسان بشكل فطري إلى الاستكشاف والاستطلاع، وفهم كل ما يحيط به من الأشياء والموجودات والبشر، فاندفع إلى التنقُّل و الترحال من إقليمه إلى الأقاليم المجاورة يستكشفها، ويفهم آفاقها، ويدرس طباع وعادات الشعوب والقبائل لمعرفة الخفايا مرَّة، وليتقارب مع الآخرين بحثًا عن الأمن والسلم حتى يحقق النمو والازدهار في حياته، وحب الإنسان للرحلات وفكرته في إنشاء السفارات من أجل التقارب مع الحضارات الأخرى، هي خير دليل على ميله ورغبته في إرساء حضارة التوافق، والتناغم مع الآخرين بعيدًا عن الحروب وسفك الدماء، وهي ضمان لبروز ثقافة إنسانية شاملة تعتمد على التفاعل في ظل تعدد الثقافات، بعيدًا عن الهيمنة والتسلُّط، ومع ذلك فقد كان هناك العديد من الأغراض والدواعي التي دعت الرحَّالة بمختلف أزمانهم وعصورهم إلى القيام برحلاتهم، فمن هذه الرحلات ما كان بدوافع سياسية كالبعثات والوفود والسفارات بين الدول؛ لتوطيد العلاقات، أو تبادل الآراء حول قضية من القضايا[13]، ومنها ما كان بدافع طلب العلم أو التعليم، كطلب علوم الطب والفقه وغير ذلك من العلوم، ودليل ذلك ما نجده من إشارات في كتب السيرة والحديث الشريف أنَّ بعض العلماء والفقهاء قد قطعوا مسافات طويلة في رحلاتهم؛ لطلب العلم الشرعي والفقه، كما هناك بعض المعلمين الذين قاموا برحلات للإفادة من علمهم في علوم متنوِّعة[14]، أو قد تكون الرحلة بدافع ديني، وهذا النوع من الرحلات أشهرها على الإطلاق، ومن أمثلتها رحلة الحج وزيارة الأماكن المقدَّسة توبةً وطهارةً للنفس، أو الرحلة إلى

الجهاد، أو الرباط في سبيل الله، أو لغرض العظة والعبرة، وقد تكون الرحلة لأغراض اقتصادية، وهي من أقدم الأغراض التي دعتهم إلى القيام بها مثل التجارة وفتح الأسواق في أماكن أخرى[15]، وقد تكون دواعي القيام بالرحلة أسباب أخرى، كالرحلة إلى التداوي من الأمراض والاستشفاء والهجرة والخروج من دار الحرب إلى دار السلم[16]، أو حتى بمجرَّد التجوّل وحب التنقل، واكتساب الخبرات والتعرُّف على المعالم الشهيرة كالغرائب والآثار وغيرها[17].

ولو تتبَّعنا نشأة أدب الرحلة وما حصل فيه من تحوُّلات لوجدنا أنَّ الرحلة الأولى في صدر الإسلام بعد هجرة النبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– إلى المدينة المنورة، وهجرة صحابته –رضى الله عنهم– إلى الحبشة، وبعثاته –صلَّى الله عليه وسلَّم– إلى الملوك والسلاطين، يلقانا ما روي عن تميم الداري –رضى الله عنه– أنَّه تحدث عن رحلة له في بحر الشام[18].

أمَّا في القرن الثالث الهجري فهناك أشهر الكتب في هذا المجال منها (كتاب الأقاليم)، (البلدان الكبير)، و(أنساب البلدان) للمؤرخ هشام الكلبي، وفي القرن الرابع الهجري (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي، و(رحلة ابن فضلان) لابن فضلان، و(صور الأقاليم) لأحمد بن سهل البلخي، و(صورة الأرض) لابن حوقل، وفي القرن الخامس يقابلنا ما كتبه البيروني عن بلاد الهند، وكتاب عمر العذري (نظام المرجان في المسالك والممالك)، أمَّا القرن السادس فكتاب (المغرب عن بعض عجائب المغرب) لأبي أحمد الغرناطي و(نزهة المشتاق) للإدريسي، ويأتي القرن السابع الهجري فنجد أهم معجم من معاجم الجغرافية الذي يمكن الركون إليه كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي[19]، ومن المؤلفات في أدب الرحلات في القرن الثامن كتابيّ (تقويم البلدان) و(المختصر في تاريخ البشر) لأبي الفداء، وكتاب (ابن خلدون) الذي ركَّز فيه على سيرة حياته ورحلاته، وفي القرن الهجري التاسع قلَّت الرحلات إلى أنْ حلّ عصر النهضة، وترجع الأسباب في ذلك إلى أنَّ الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد العرب كانت قد تحوَّلت إلى الانهيار والضياع، وانقلبت موازينها من قمة المجد إلى الذل والخضوع [20]، ومع ذلك نجد عددًا قليلًا من الرحَّالة الذين كتبوا في آدب الرحلة في هذه الفترة، ووضعوا مؤلفاتهم في هذا المجال، أمثال عبد الغني النابلسي، الذي كتب كتابه الموسوم بـ(الرحلة الحجازية)[21]، أمَّا العصر الحديث، فنلحظ ظهورًا وازدهارًا لفن أدب الرحلة من جديد، تمثَّل في بعثات علمية من العرب إلى

أوروبا وأمريكا، اعتنوا فيه بوصف بلدان أوروبا، ومظاهر العمران فيها، ومن أهم رحَّالة هذا العصر محمد عمر التونسي وكتابه (تشحيذ الأذهان)، والطهطاوي الذي كتب (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، وفي ختام المحور ينبغي التنويه على أنَّ ما كتب في هذا البحث من أسماء للرحَّالة العرب ليس على سبيل الحصر، وإنَّما جاء ذكرهم للتمثيل فقط، وليس معنى السكوت عن بعضهم الآخر تقليل من شأنهم فضيق البحث لا يستوعب جميع الأسماء.

المحور الثالث: أدب الرحلة ودوره في الحوار والتلاقح بين الثقافات.

اهتم الباحثون بأدب الرحلة من عدَّة منطلقات: جغرافية وتاريخية ونفسية واجتماعية وأدبية... وتناولوه بأساليب نقدية متنوِّعة؛ ذلك أنَّه فن عرفته الشعوب منذ القدم، واشتهر به رجال كثيرون ذكرنا العديد منهم في المحورين السابقين في هذا البحث، وعُدَّ أدب الرحلات عند هؤلاء النقَّاد والباحثين إناءً معرفيًا يضم مختلف أنواع الثقافة الإنسانية، وهو عندهم أحد الروابط التي تربط المجتمعات بعضها ببعض، ومن أهم عوامل تلاقح الحضارات، وتمازج ثقافات الشعوب، وما كتب في أدب الرحلات يعد وثائق إنسانية مهمة لبيان الحقائق، فهي مراجع تاريخية مهمة، إذ أنَّها تصف وبشكل دقيق التفاصيل التي عاشها وعاصرها الرحَّالة خلال سفره، والرحلة تزوِّد الإنسان بالمعلومات المهمة والتجارب المختلفة، ومطالعة كتب الرحلات لازمة لكل من يود الكتابة أو الدراسة عن إحدى الفترات التي كتبت فيها تلك الرحلات، ولأنَّها كتابات تصور الحياة في تلك الأزمان[22]، فهي منابع ثرية لمختلف مناحي الحياة، ومفاهيم أهلها على مرِّ العصور، بحيث يقدِّم الرحَّالة فيها عادات الناس وتقاليدهم وأطعمتهم، وشعائرهم الدينية، وغير ذلك من الأمور ويصوِّرها.

وقد أدَّى أدب الرحلة إلى التقارب بين الشعوب، ذلك لأنَّه وسيلة من وسائل التعرُّف إلى مواطن البشر، واختلاف ثقافاتهم وأساليب حياتهم، والحضارات التي يتخذون منها، كما يعد وسيلة من وسائل التقريب بين الحضارات المختلفة كالإسلامية والمسيحية، وغيرها من الحضارات والديانات.

وتلعب الرحلات الدور العظيم في ثقافة التواصل بين الشعوب من خلال التعارف بينها ومشاركة الأمة أفكار أمة أخرى؛ لأنَّ التواصل بينها يسهم في تمكين الأفراد والجماعات والشعوب من التجانس والتفاعل والتعارف في ظل تعدد الثقافات بعيدًا عن احتكار الأفراد للنفوذ والسلطة وإمكانياتها، وتمنح الرحلة أبعادًا جديدة من الثقافات، وتبادل

الخبرات، والمعلومات في مختلف أنحاء الكون، واكتساب أصدقاء كثر من كافة الجنسيات في العالم، وتجعل الناس أكثر انفتاحًا وأكثر صبرًا، وهي فرصة لغرس مفهوم العمل الجماعي، وتبادل الآراء والتواصل مع الآخرين، ونقل الأفكار المحلية إلى الآخر، والتمازج مع أفكارهم، والاستفادة من التعددية الثقافية.

والتواصل عبر الرحلات يعد جسرًا تعبر الثقافات المختلفة من خلاله، فهي السبب الأول في خلق الحوار بين الشعوب المختلفة، وتضييق الفجوات والمسافات بين مختلف الحضارات والثقافات، وتهيء الظروف لإيجاد لغة عالمية مشتركة هي لغة السلم والسلام؛ لأنَّها وسيلة تؤدي إلى التفاعل و المثاقفة دونما فقدان للهوية أو الخصوصية، والرحلة بهذا المفهوم الذي ذكر من المؤكد أنَّ وسائل التواصل الحديثة والتقدُّم التكنولوجي والالكتروني قد أثَّرا فيها تأثيرًا سلبيًا، بحيث أفقداها أهميتها التي كانت تتمتع بها، وبحيث صار بمقدور مستخدمي هذه الوسائل الحديثة رؤية أبعد نقطة جغرافية في العالم، والتعرُّف إلى سكانها، وعاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم بدلًا من مشاق الرحلة وتعبها وتكاليفها، ومع ذلك فأدب الرحلات يتميَّز بخصوصية أنَّ له القدرة على دخول المجتمعات، والاحتكاك بها والتعرُّف إلى خصائص لا تستطيع الوسائل الحديثة ولوجها أو نقلها، لذلك واصل الإنسان رحلاته التقليدية بدافع الإثارة والكشف، بل وزاد على ذلك فاستحدث أنواع جديدة من الرحلات كرحلاته إلى الفضاء تلك الرحلات التي شكَّلت حدثًا إنسانيًا عظيمًا، وتحولًا تاريخيًا، وكرحلاته إلى أعماق البحار لكشفها، والرحلات التوثيقية التي مفادها إثبات فرضية تاريخية معينة أو نفيها.

وينبغي أنْ نعرف أنَّ أدب الرحلات ليس إيجابيًا دائمًا، فربما كان موجَّهًا، بحيث ينقل صورًا مغلوطة عن بعض الأمم والدول كتلك الصور التي نقلت عبر الرحلة عن أمتنا – أمة العرب المسلمين– وما حوته من أفكار كاذبة، تهدف إلى الإساءة والتشويه والغرض منها السيطرة والهيمنة والاستعمار، من ذلك رحلات بعض الرحَّالة الأوروبيين والمستشرقين إلى بلاد العرب والمسلمين[23]، ولذلك لابد من العمل على زيادة الوعي الثقافي بين أبناء الأمة، أمام تحديات العولمة الثقافية، وتكييف سلوك المسلمين وفق إرادة قوى لا تقيم لهوية الشعوب وثقافتها وزنًا، ويتأتى هذا بزيادة الرحلات بين الدول الإسلامية، والعمل على مواكبة التطور العالمي والمعارفي في شتَّى المجالات، والوقوف أمام الغزو الثقافي الذي يفرض نمط حياة الدولة المستعمِرة على سكان الأرض، والتي تعمل على صهر الحضارات العريقة مع الدول التي لا حضارات لها، حتى تمحو هويتها الثقافية إذن لابد من زيادة الوعي بأهمية الرحلات؛

لأنَّها تقف حائلًا أمام تلك المخطَّطات، فالرحالة من خلال توقفهم بين الرحلة والأخرى لأجل الراحة يمنحون أنفسهم الفرصة مع الآخرين للتعرُّف على أناس آخرين، يتصلون بهم اتصالًا مباشرًا ويستمعون إليهم ويتأثرون بهم، ويؤثرون عليهم فكرًا ومذهبًا وأعرافًا وعادات، وتجدر الإشارة إلى مفهوم التلاقح الثقافي والعولمة التي تعني سحق الدول التي لا حضارات لها، وإزاحة الحدود والحواجز بين الدول الأمر الذي يحدث نوعًا من السيطرة وفرض القوة على حساب الدول الضعيفة، والتلاقح يعني المثاقفة، أو التثاقف، أي بمعنى أخذ بعض الصفات الثقافية، وبعض الأنواع الاجتماعية السائدة في مجتمع من المجتمعات، وزرعها في ثقافة أخرى ممَّا يحدث تغيرًا إيجابيًا مرغوبًا يستفاد منه ويؤدي إلى نقل التجارب والتعريف بالقيم.

المحور الرابع : مظاهر الرحلة الاجتماعية والدينية والثقافية كرابط للتواصل بين الحضارات.

1- المظاهر الاجتماعية:

منها ما وصفه لنا بعض الرحالة عن بعض المظاهر المتعدِّدة للحياة اليومية عند بعض الشعوب، مثل ما يتصل بالبيئة والمأكل والملبس والطب والتداوي، وعادات الزواج، والتقاليد المصاحبة لها، كما طرح بعضهم فكرة وجود تنوُّع بين الشعوب في النواحي الثقافية واللغوية والسلالية، فابن جبير مثلًا نقل إلينا صورة حية وصادقة عن المدن والمجتمعات التي زارها، وعن عادات السكان الاجتماعية، وتقاليدهم ونظمهم وأحوالهم النفسية[24]، ومن هنا تظهر قيمة أدب الرحلات فيما قدَّمته من أدلة بارزة على قيمة رحلاتهم في تزويدهم مباشرة بالمعلومات المستمدة من الملاحظات المباشرة، والمعاينة الشخصية عن الأحوال الاجتماعية والثقافية للبلدان التي رحلوا إليها أو أقاموا فيها، كما يكمن في الرحلة الكثير من القيم العلمية من حيث احتوائها على المعارف والمدوَّنات، والتقارير الوافية عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية والعمرانية لأي شعب من الشعوب، مثل المعالم الأثرية، ودرس العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ووصف الممالك والبلدان[25].

2- المظاهر الثقافية:

إنَّ احتكاك الثقافات بعضها ببعض عبر الرحلات، وما كتب فيها أعطى دافعًا لدى بعض أفراد الشعوب إلى إبراز ثقافاتهم من خلال النوع الأدبي الذي عرفوه، واشتهروا به مع الإطلاع على ثقافات أخرى تسهم في إنجاح العمل الأدبي، ويسهم التأثير بالثقافات في سعة الإطلاع، ويكسب الأدباء تنوعًا في وسائل الإنتاج، فعملية التواصل و التلاقح تعني الأخذ

والرد، أي مثلما تتأثر بثقافة غيرك، فلابد لك أنْ تعمل على نشر ثقافتك، أي التبادل والنقاش والحوار، وتكمن أهمية أدب الرحلة في كونه تسجيل للأفكار، وتسجل للأنشطة الثقافية المختلفة، وبالتالي تنشط سوق لكتابة الرحلات بالإضافة إلى ترجمتها للغات أخرى؛ لاحتوائها على الكثير من الجوانب التاريخية والثقافية[26]، وهي وسيلة تمنح القارئ المعرفة بما يحيط به، وهناك رابطة بين ثقافة التواصل والرحلات؛ لأنَّها ثقافة تبادلية بين الرحالة وسكان البلدان التي يزورونها، تأتي في صورة التعارف والتحاور.

ومن أهم المظاهر الثقافية التي نتجت عن الرحلات تدوين الرحالة لكل ما يمر به، لإبراز معالم الشعوب وحضاراتها في مختلف بقاع الأرض بطريقة تتصف بالدقة المتناهية والتصوير الأدبي المعتمد على المشاهدة، والرحلة في حد ذاتها تعد من أهم الأمور التي تحقِّق التواصل والتفاعل الثقافي والحضاري، فما تحمله الرحلات من إنتاج فكري وعلمي، سيكون مشحونًا بفكرة التواصل والاحتكاك، وهي منابع ثرية لمختلف العلوم، وسجل لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور، وهذه الرحلات مثلت لغة تواصل ثقافي حقيقي من خلال الأدب وإقامة الحلقات والدروس في البلاد المختلفة في مساجدها ومؤسساتها التعليمية، وهي تنقل العلوم من بلاد إلى أخرى، وتعد الرحلات العلمية مصدرًا مهمًا لمعرفة الحياة الثقافية والبيئات العلمية شرقًا وغربًا، ففيها ذكر لأهم المراكز العلمية ومجالس الدرس والتحصيل[27]، وهي صورة حقيقية لشهود العيان عن أحوال البلاد المختلفة، وقد شكَّلت الرحلة نوعًا من الانفتاح في المعرفة؛ لأنَّها تتخذ من التجربة والمشاهدة المباشرة أساسًا للوصف والتدوين للأحداث.

3- المظاهر الدينية:

مثَّلت الرحلة إلى الحج إلى بيت الله الحرام أهم المظاهر الدينية في أدب الرحلات، فقد حظيت بالكثير من الاهتمام والعناية، فهي من أكثر الرحلات التي اعتنى المؤرخون والرحالة والعلماء بسرد تفاصيلها ووصفها، فوصفوا بناء المسجد الحرام، ووصفوا الرحلة، وطريقهم التي سلكوها والصعوبات التي واجهوها في طريقهم، وما قابلهم من منازل ومزارع ومساجد ووصفوا الناس وأخلاقهم والأسواق، وكل ما شاهدوه[28].

وكثرت حول رحلة الحج المؤلفات والكتب، فبالإضافة إلى ما كتبه ابن بطوطة في كتاب (تحفة النظار)، وما كتبه ابن جبير في رحلته، يلقانا كتاب (مستفاد الرحلة والاغتراب) للرحالة الشيخ قاسم بن يوسف التجيبي عن رحلته إلى الحجاز (696هـ)، وقد أوضح فيه

الصعوبات التي يواجهها راكب البحر لبلوغ الحج، وكذلك يلقانا ما كتبه العياشي (ماء الموائد)، أو ما يعرف بالرحلة العياشية عام (1072هـ)، و(الرحلة الحجازية) للشيخ عثمان بن إبراهيم السنوسي، وبالإضافة إلى رحلة الحج هناك زيارة المقدَّسات، والمدينة المنورة، ورحلة الجهاد في سبيل الله والرباط، ورحلات تبليغ الدعوة والفتوحات الإسلامية شرقًا وغربًا ويتخلَّل كل هذه الرحلات التعرُّف على الآخرين من خلال الحديث معهم، والتواصل والتقارب في شتَّى المجالات.

الخاتمـــة:

تم البحث بعون الله وأسفر عن مجموعة من النتائج والتوصيات:

1- أنَّ أدب الرحلات كان ولا يزال جسرًا تعبر الثقافات من خلاله إلى جميع المجتمعات، وهو يلعب دورًا مهمًا في خلق الحوار بين الشعوب المختلفة.

2- إنَّ تلاقح الثقافات سلوك حضاري وثقافة تراكمية مقبولة، لها دورها في ترسيخ مفاهيم إيجابية نحو السلام والاستقرار والتعايش.

3- أدب الرحلة تسجيل للأفكار والأنشطة الثقافية ووسيلة من وسائل التقريب بين الحضارات.

4- إنَّ الحوار الحضاري بين الدول هو أفضل السبل للخروج من الأزمات.

5- ضرورة زيادة الوعي الثقافي أمام التحديات المعلوماتية والعولمة بزيادة الرحلات بين الدول الإسلامية والعمل على زيادة التطور العلمي والمعرفي في شتَّى المجالات والوقوف في وجه الغزو الثقافي.

6- إيجاد فرص لتبادل الأفكار ونقل المهارات والمعارف، وتبادل الخبرات من أجل تشجيع الحوار والتواصل بين الثقافات.

هوامش البحث ومصادره:

(1) الرحلات، شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، القاهرة، لاتاريخ، ص16.

(2) الرحَّالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن، دار الرائد العربي، بيروت، لاط، لبنان، 1981، ص142.

(3) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ابن بطوطة، تحقيق محمد عبدالمنعم العريان، مراجعة وإعداد مصطفى القفاص، دار إحياء العلوم، ط1، بيروت، 1987م، ص20.

(4) ينظر: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن، ص196.

(5) ينظر: رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تحقيق حسين نصار، دار صادر، ط1، بيروت، 1955م، ص71.

(6) ينظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، مكتبة الثقافة الدينية، لاط، القاهرة، 2002م، المجلد 1، ص22.

(7) ينظر: أدب الرحلات، حسين محمد فهيم، عالم المعرفة، لاط، القاهرة، 1989م، ص65.

(8) ينظر: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسين، ص108.

(9) ينظر: الرحلات، شوقي ضيف، ص70.

(10) ينظر: أدب الرحلة في التراث العربي، فؤاد قنديل، مكتبة الدار العربية للكتاب، لاط، القاهرة، 2002م، ص16.

(11) ينظر: أدب الرحلة عند العرب، حسيني محمود حسين، دار الأندلس، ط2، لبنان، 1983م، ص17، 18.

(12) ينظر: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن، ص155.

(13) ينظر: أدب الرحلة، حسين نصار، مكتبة لبنان، ط1، لبنان، 1991م، ص54.

(14) ينظر: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، محمد حسن عقيلي موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، ط1، جدة، 2000، ص21 ؛ وينظر: رحلة ابن جبير، ص38.

(15) ينظر: الجغرافية والرحلات عند العرب، نقولا زيادة، دار الكتاب اللبناني، لاط، لبنان، 1987م، ص104.

(16) ينظر: المرجع نفسه، ص107.

(17) المرجع نفسه، ص107.

(18) ينظر: الرحلات، شوقي ضيف، ص48.

(19) ينظر: الجغرافية والرحلات عند العرب، نقولا زيادة، ص89.

(20) ينظر: أدب الرحلة، حسين نصار، ص59.

(21) المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، محمد حسن الشريف، ص112.

(22) ينظر: الرحلة في الأدب العربي، شعيب حليفي، شركة الأمل للطباعة والنشر، لاط، المغرب، 2002، ص82.

(23) ينظر: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن، ص25.

(24) ينظر: رحلة ابن جبير، محمد أحمد بن جبير الأندلسي، ص74-77.

(25) ينظر: الجغرافية والرحلات عند العرب، نقولا زيادة، ص19.

(26) ينظر: أدب الرحلة في التراث العربي، فؤاد قنديل، ص42.

(27) ينظر: الرحلة العياشية، أبو سالم العياشي، تحقيق سعيد الفاضلي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، الامارات، 2006، ص22.

(28) ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ابن بطوطة، ص127.